الاغتراب والضياع

والبحث عن المسؤول في "مسحوق الهمس" ليوسف ادريس

تقلم سعد الدين وهبان

الثورة والحرية والفردية والجماعية كلمات يكثر تداولها بين المثقفين تعبيرا عن مواقف فكرية مبدئية من قضايا التحرر السياسية والاجتماعية . وهي كلمات يزداد تألقها وشمولها في اللحظات المصيرية من حياة الامم والشعوب بحيث يضحي تجنب الخوض في مدلولاتها عملية مرهقة ان لم تكن مستحيلة .

وطبيعي ان الفنان الاصيل اشد الناس اهتماما بمضامينها ، يخضع في ذلك لحساسيته المرهفة التي تلزمه اتخاذ موقف محدد منها سلبا او ايجابا ، رفضا او قبولا ، فهما ذاتيا خاصا او فهما موضوعيا علميا .. والفنان لا يلتزم باي شيء التزاما عارضا او اعتباطيا، وانما يستلهم في ذلك رؤيته الفكرية ومكونات عقيدته الاجتماعية ... وفي هذا دلالة اكيدة على العلاقة الوثيقة التي تشد الفرد الى مجتمعه بروابط متعددة تنعكس اثارها في تكوين ابعاد رؤيته وفي توضيح سماتها الاساسية .

ولكن كيف تتكون هذه الرؤية ؟ وما هي الدوافع الكامنة خلفها ؟ أقرب الاحتمالات الى المنطق رد ذلك الى واحد من عاملين او اليهما معا : انتماء طبقي ، أو التزام فكري ايديولوجي .

فأما الانتماء الطبقي فلا بد ان يدعمه وعي سياسي مستنير يضفي عليه عمقا وصلابة والا كان عرضة للانحراف والتراجع والانكماش بتأثير عوامل شتى من الاغراء . واما الالتزام الايديولوجي فمن الواجب ان يكون نابعا من معاناة وجدانية عميقة صادقة والا حدث انفصام بين الفكر والسلوك ، او بين العقل والوجدان ، او بين الحياة الواقعية والايمان النظري .

ولا تخفى اهمية ذلك كله في مجتمع ينوء بهموم تطلعاته وآماله ، كما ينوء بارث ماضيه وكآبة حاضره . فوطننا العربي جزء بارز وهام من العالم الثالث ، هذا العالم الذي تحالفت عليه اعتى قوى الشر : الاستعمار الاقتصادي الجديد من ناحية ، والتخلف الحضاري المتوطن من ناحية ثانية .. وتضافرت هذه القوى متفاعلة متناغمة فخلقت من المشكلات اعوصها واشدها تأبيا على الحل ، ومن ثم اوشكت الجماهير ان تشرف على اليأس من مستقبلها ، وعلى الاستغراق في تشاؤم كئيب مؤلم .

واذا كنا نشارك العالم الثالث مشاكله المزمنة ، وتفاعلاته المتدافعة المتلاحقة ، فلقد انفردنا عنه بمأساة رهيبة تستنزف منا الجهد والمال، كما تستقطب التآمر والغدر والعدوان .

اذن ، نحن نعيش واقعا حضاريا متميزا ، لا سيما في مصر حيث يتعايش التخلف ومحاولة الثورة عليه ، وحيث يتناوب النجاح والفشل تجاربنا وخطواتنا ، وحيث الثورة الوطنية قد آلت الى مفترق طرق خطير وحاسم .. ووقف الناس يلتقطون الانفاس، ثم يلتفتون الى الماضي محاولين احصاء ما غنموه وما غرموه ، ثم يعودون الى الحاضر يراقبون ويراقبون : ففريق لا يرى الا المساوىء والمثالب فيسرف في الطعن والتجريح ، وفريق يستغرقه المحاسن والمناقب فيسرف في المدح والتقريظ ايضا ، وقلة ضئيلة تقيم الواقع على حقيقته من غير ان تتجنى او تجامل .

ويقف الفن جزعا يترقب : أيعرض عن هذا كله مشيحا بوجهه وكأنه لا يحس ما يعمل في المجتمع ام يقدم اقداما لا هوادة فيه ؟وهبه أقدم : أيكتفي باللمح الخاطف الموحي أم يكشف أورافه صراحة وجهرا؟ واختار الفن لانه لا يقدر ان يكون متفرجا ، اختار الاقدام واختار اللمح المعبر الرامز كذلك ... وهكذا توالت روايات ومسرحيات وقصص ومؤلفات كثيرة ، منها ما اندفع خارج الحدود بدافع من اغراء المال او أغواء الشهرة ، ومنها ما بقي في الداخل ليكذب ادعاءات واوهاما .

وليس غريبا ان يكون نصيب الفن القصصي عظيما وافرا ، وليس غريبا كذلك ان يتفاوت حظ تلك القصص من الفنية والاجادة، حتى انه ليكمننا اسقاط بعضها دون ادنى احساس بالاسف او الخسران.. أجل ، يمكننا ان نفعل ذلك مطمئنين ، ولكننا لن نستطيع اطلاقا ان نهمل كاتبا فنانا مثل الدكتور يوسف ادريس ، او نتغاضى عن نتاجه الاخير خاصة .

* * *

الدكتور يوسف ادريس فنان له رؤيته الخاصة ، وله وجهة نظره التي تعكس هذه الرؤية كذلك . وهو حريص الحرص كله على ابلاغ وجهة نظره هذه الى الناس كيلا تبقى حبيسة ذهنه الدقيق الناقد، وكيلا يتهم بالانانية والفردية المقيتة الى نفسه ... ونحن نحترم حق الفنان في ابداء رأيه ، ولكننا نحترم حقنا ايضا في مناقشة رأيه هذا وفي تقييم انتاجه الادبي متخذين الى ذلك منهجا مزدوجا : البحث عن المقومات الفنية من ناحية ، واستقراء الخلفية الحضارية من ناحية ثانية .

وثمة احتراز ضروري هنا ، فنحن لن نتناول مؤلفات الكاتب كاملة، وانما سنحاول تكوين صورة مقاربة عن رؤيته الفكرية من خلال مجموعته القصصية « مسحوق الهمس (١) » ، جاهدين في ان نعطي رموزه ابعادها الحقيقية او المقاربة للحقيقة .

وقد يكون من المفيد ، قبل ان يستغرقنا الحديث ، ان نحدد الاطر الخارجية التي تلم اشتات القصص السبع المؤلف منها الكتاب .

فأما المكان فهو مصر بمجتمعها الخصب الحافل بالنماذج الانسانية .

وأما الزمان فحاضرها المتماوج بالامل واليأس ، بالسكينة والعنف .

وأما الشخصيات فمزيج من الواقع والرمز .

تلك هي الاطر الرئيسية التي تلتقي برؤية الكاتب الخاصة لتنتج آثارها الطبيعية ، ونضفي على قصصه مسحة متميزة ونكهة متفردة، ما زال صداها يتردد حتى يسلمنا الى حالة من الحيرة والتساؤل ،والى شيء من المرارة والقلق : لقد وعينا المشكلة وعيا كاملا وعرفنا ابعادها الظاهرة والخفية ، ولكننا ما زلنا عاجزين ، كما عجز الكاتب نفسه ، عن ادراك السبيل القويم الى التحرر من آثارها والانطلاق من قيودها .

ولسنا نبالغ أن قلنا ان التغاضي عن الرمز واغفاله يفقدان القصص اهميتها وخطرها ويقعدان بها عن ان تصل الى المستوى الفني الذي شهر به الكاتب .. ومن هنا سنجهد في أن نستنطق المضمون القصصي رموزه الحية .

يبدأ الكاتب بتقرير حقيقة اولية وهي ان الانسان كائن اجتماعي لا يمكن ان تنتظم اموره او تستقيم حياته الا بالتعاون والمشاركة مع الاخرين ، (فنحن كائنات ارضية لا تنمو بصحة الا معا ، الا كمحصول واحد فاذا ما زرع كل نبات منا بمفرده خنقته الطفيليات.. ص٨٧).

وما دامت الجماعية هي البداية ، فطبيعي أن تكون هناك ازمات ترافق التحول نحو الاشتراكية في بيئة كانت الى عهد قريب مشغولة باحزاب متناحرة ، وموبوءة بنزعة فردية عنيفة .. وطبيعي كذلك ان تكون الثورة هي العصا السحرية التي تحل التناقضات ، وتبتكر العلاج لكل داء مزمن أو طارىء .

والثورة هنا تعني الثورة الاجتماعية ، مما يدفعنا الى التساؤل: من يصنع الثورة ، البروليتاريا أو البرجوازية ؟ .. واين نكون ، في الريف او المدينة ؟ . وهل يمكن للثورة الوطنية ان تسير في الطريق الاجتماعي دون ان تسقط في احضان البرجوازية الانتهازية ؟.

هذه الاسئلة المصيرية وامثالها تشغل بال الكاتب وتؤرقه ،واذا قصته الاولى « النداهة » محاولة رمزية للاجابة ، او لاضافة تساؤلات أخرى بعبارة اصح ... ففتحية ، هذه البنت الريفية الطيبة الساذجة، المغرية الجميلة الجذابة أيضا ، أشبه ما تكون بتجسيد حي للثورة ... لقد نشأت هناك في الريف ،ثم اقترنت بحامد ، العامل الكادح الذي جاء بها الى المدينة ، بعد ان هجر الارض ليعمل بواب عمارة في القاهرة ، وهو امر كانت تخشاه ، لانها كانت ترى فيه سقوطها وقدرها المحتوم ، خاصة وان هاتفا لعينا ما زال يؤكد لها ذلك ، مما يرعبها ويثير الذعر في نفسها ، ويجعلها بالمقابل أشد اصرارا على المقاومة (... فقد كانت تؤكد لنفسها اذا هتف بها الهاتف وارتسمت الصورة انها بجماع نفسها ستقاوم وستموت حتما قبل ان يستطيع ـ انسيا كان أو افنديا ـ ان يلمسها .. ومع ان الهاتف نفسه كان يؤكد لها ان مقاومتها لن تفلح ... وانها حتما لا بد في النهاية سترضى وتستسلم بحيث تقع الكارثة ويكون المقدر ... الا انها كانت تقاوم وسوسة الهاتف نفسه وتقسم .. وتموت غيظا مؤكدة لنفسها ان شيئا مما يقوله لن يكون ، ليعود الهاتف يؤكد لها انه حتما سيكون .. برضاها او بعدم رضاها سيكون .. بل هو كائن وحادث فعلا ودائم الحدوث ... ص ١٦) .

وقد حدث فعلا ما كانت تخشاه ، وتم المقدر المحتوم ، ولم يكن ذلك برضاها ، اذ اغتصبها اغتصابا الافندي ، ذلك الموظف البرجوازي ، بعد ان جهد وجاهد في استمالتها ، فكانت تعرض عن مقابلته او الحديث اليه خوفا من الوقوع في الشرك الذي نصبه لها القدر ... نعم ، طالما جاهدت واستنجدت بحذرها وخشيتها ، ولكنه كان عنيفا ، وكان جريئا ، وكان برجوازيا مرفها ذلك الذي اغتصبها وقهر مقاومتها في النهاية حتى أنها أحست اللذة والمتعة والنشوة ، وحتى انها تمنت ان يقتلها حامد لئلا تسلم الافندي فيادها راضية مطمئنة .. أتراه يقتلها ؟ ليست تدري ، لانه (..الان لا يريد لها أن تموت وهو قطعا لا يريد لها ان تحيا .. .ص١٣). أتراه يقضي عليها ؟ سؤال عذبها طويلا قبل ان تهرب من حامدومن ركوب القطار فافلة معه الى الريف ، لتؤوب الى حياة المدينة اللاهية المسترضية ، ولتؤوب ربما الى الافندي ، فاهرها الجسور ايضا .

وهكذا تتكامل الرموز باطرافها الثلاثة : الثورة والبروليتاريا والبرجوازية .. ويكون اقتران الثورة بالبروليتاريا تعبيرا ذا دلالة صريحة ، اذ يؤكد من هم خالقو الثورة .. ولكن الخطر يكمن في رحيلهما من الريف الى المدينة حيث البرجوازية تجرب وسائل الغواية والاغراء كلها ، هادفة من وراء ذلك الى الاستيلاء على الثورة الوطنية ... ولكن ، أتراها تنجح ؟؟... صحيح أنها اعتدت على الثورة عنوة واشعرها متعة الارتماء في احضانها ، ولكن الصحيح أيضا أنها فعلت ذلك مرة واحدة في ظروف غير طبيعية او عادية ، فهل يتاح لها تكرار ذلك الى الابد ؟ وكيف سيكون مصير الثورة ؟. سؤال يبقيه الكاتب معلقا ليأخذ في بحث جاد عن المسؤول عما آلت اليه فتحية او الثورة .. وابقاء السؤال معلقا امر فرضته رؤية الكاتب التي تسترجع الماضي أكثر مما تتشوف أو تستشرف المستقبل ، والتي جعلت الرمز يطفي على الناحية الفنية بحيث فقدت نهاية القصة مبررها المنطقي ، اذ لا يبدو تصرف فتحية معقولا او مقبولا قياسا على سلوكها خلال القصة كلها . ونحن نتساءل هنا : لماذا هربت فتحية من زوجها ؟ أكانت تخشى ثأره ؟ وكيف تخشى الثأر وهي التي كانت تتمنى صادقة ان يقتلها حامد ، وأن يفعل ذلك بسرعة كي تغسل عار زلتها ؟؟.. اينسجم ذلك مع سياق القصة ؟ كان يصح ذلك لو ان فتحية غير ما هي عليه : فهي انسانة سلبية تحاذر بأس زوجها وتنتظر منه المبادرة دوما بحيث لا يصدر عنها اي فعل ايجابي ، وبحيث تقتصر تصرفاتها على ردود فعل متواضعة محدودة .

* * *

اذن ، هناك وضع قائم اقرب الى السوء منه الى الاستقامة،وهناك مسؤول يتحمل وزر هذا الوضع .. ومن حق الكاتب ، بل من واجبه، ان يبحث عن هذا المسؤول ما دام قد حدد سمات المشكلة وخصائصها

وهذا المسؤول قد يكون حاكما او محكوما ، وقد يكون شخصا أو فكرة أو مبدأ ، فكيف يراه كاتبنا ؟ ولماذا آلت الثورة الى هذا المأزق التاريخي ؟.

ان قضية الحرية ، أو فقدانها ،هي المسبب لكل تلك المظاهر السلبية .. وقصة « مسحوق الهمس » غنية بتعبيراتها ، وغنية بمناجي التبرؤ الفكري أيضا . وهي تروي احاسيس سجين وانفعالاته ومشاعره منذ أن نقل من زنزانته الى أخرى مجاورة لزنزانة النساء ، فسرح به الخيال وأخذ يفلسف شؤون الحياة والسجن ، ثم ينهي كل مقطع بكلمة ((النساء)) منفردة في سطر ، مما يحمل دلالات خصبة لعل ابرزها طاقتها النفسية على انمام المعنى المقصود واكماله ، ولعل ابرزها ايضا جعل هذه الكلمة رمزا لتطلعات عزيزة غالية يتشوق اليها المرء في مجتمع قضى عليه بالانفراد والعذاب .

وسجيننا شاعر بسلاحه الكلمة . وكونه شاعرا يجعله متميزا عن الاخرين بحساسيته ورؤيته واغترابه ، وكون الكلمة سلاحه يوحي بجو خاص عن الكبت الفكري الذي يريد الكاتب ان يوهم به ، وكون ذلك حقا بالنسبة له بجعل السجين قويا (... واحس وأنا في اقبح مكان في الكون بجمال العالم وطعم الدنيا لم يذقه بشر ، اشعر أني اصبحت أقوى من سجني وسجانيّ ومن سجنوني .ص ٧٠) ، كما يجعله عميق الاحساس بتفرده وتفوقه وعجز الاخرين عن ادراك سبب سجنه أو سبر فكره (قد لا نستطيع ان ندرك معنى أنني شاعر أو تفهم تماما سبب سجني .ص ٧١).

ولكن ، ما بال الكاتب يتغاضى عن التصريح بالسبب الذي سجن الشاعر من اجله ؟ أهو سبب سياسي ؟ أغلب الظن انه سبب سياسي أداة الجريمة فيه هي الكلمة ، نستنتج ذلك من قول السجين ص ٤٩

(١) ـ الناشر دار الطليعة ـ بيروت ـ شباط (فبراير) ١٩٧٠.

(بعد بضع خطوات بدأت ألهث واتساءل جادا هذه المرة عن وجهتنا، اذ كنا قد غادرنا السلم الهابط الى أسفل ، والثاني الصاعد الى أعلى ، وتركنا منطقة « الاخوان » والمحبوسين احتياطيا وتحت التحقيق ...)

وهكذا يتضح ان الكبت والاضطهاد يلاحقان المثقفين ، الذين يفترض فيهم ان يكونوا طليعة الثورة وحماتها ، بسبب آرائهم وقناعاتهم .. والكاتب يدين ذاك الكبت لانه يسلم الثورة الى اعدائها، كما يستنكر هذا الاضطهاد لانه لن يزيد الناس الا اصرارا على الرفض والمقاومة (... فكأن السجن في الحقيقة ليس الا كلمة « ممنوع » كبيرة وشاملة ... ممنوع كل شيء الا ما يبقى عليك الحد الادنى اللازم كي لا تموت ، لا لانهم يريدون لا سمح الله لك البقاء ، ولكنهم يريدون لك ان تحيا حياة الموت معها أرحم اذ ممنوع عليك فيها كل ما يجعل من الحياة منعه والمباح فقط هو كل ما يجعلها عبئاً وعذابا وقيدا ثقيلا تتمنى لو تخلصت منه واسترحت بالموت . ولكن الغريب انهم لم يستطيعوا واعتقد انهم او غيرهم لن يستطيعوا مهما اتخذوا من احتياطات وبالغوا في قائمة الممنوعات ان يخلقوا ذلك السجن الكامل الذي يحلمون به فقد استطاع الانسان دائما ان يجد حرية داخل كل قيد على الحرية ، وان يخلق داخل كل ممنوع ما هومباح..ص٥٦)

الكاتب يدين ويستنكر ، ولكنه لا يجيب على السؤال المعلق ، وانما يضيف تساؤلا آخر .. فهو يعلل مأزق الثورة بفقدان الحرية وان كان يتغافل عن تعيين الاسباب ، او تحديد مفهومه للحرية ... ومهما يكن فان قصة « مسحوق الهمس » قد تكون خير ما في المجموعة من الناحية الفنية ، اذ نجد تطابقا بعيدا وتوافقا رائعا بين حالة السجين وبين دلالتها الرمزية دون اي اعتساف أو افتعال أو حشو ، وانما هو الايقاع الحي الذي يعتمد اسلوب الايجاز متجنبا التفصيلات المملة ، والذي يتخذ النفس الانسانية وما يدور فيها من صراع عنيف ميدانا ينثر من خلاله آراءه ، كما يتوارى خلف قناع السجين ليكشف ما يداخله من هواجس وانهامات . وهكذا يعانق الشكل المضمون ويزاوجه محققا الوحدة الموضوعية الضرورية لاي عمل فني ناجح.

واذا كانت الثورة مدانة ، فجماهيرها مدانون ايضا ، وكيف لا وهم يكتفون بالدعة والسكينة تاركين لها مهمة الابداع دون ان يواكبوها بالعمل الخلاق الذي يستطيع ان يرشدها ويجدد طاقتها ويحفزها الى التخلص من اعدائها . أترى الى ذاك الزوج كيف مات على مرتبته المقعرة ؟ أتراه كيف أمضى حياته منذ أن تزوج وهو يسائل زوجه ان كانت الدنيا قد تغيرت ، والمسكينة تجيبه بخنوع واستسلام أن لا ؟ أتراه كيف يعود الى النوم ، حتى أمضى سنوات طويلة نائما اي راكنا نفسه دون القيام بأي عمل مفيد ؟ أتراه كيف مات أخيرا وهومستلق على مرتبة « دخلته » ؟.. حينذاك فقط (حينذاك وبعد ان شاهدت سقوط المرتبة اللحد حتى مستقرها الاخير ، نظرت الزوجة من النافذة، وأدارت بصرها في الفضاء ، وقالت :

ـ يا الهي ... لقد تغيرت الدنيا .. ص ٨٣) .

اذن ، لن يستقيم الأمر ، ولن تستوي شؤون الحياة ، ولن تتغير الدنيا ما لم يسقط جيل التواكل والبطالة والخنوع والاستسلام ليخلفه جيل جديد يؤمن بأن العمل شرف ، وبأن النضال شرف أيضا ، وبانهما السبيل الوحيد الى التغيير الجذري الشامل .

ولكن ، أيكون الجيل الجديد خيرا من الماضي ؟. ان الكاتب يائس منه أيضا اليأس كله . فهو جيل عابث لاه غير أهل لتحمل المسؤولية أو النهوض بالواجب . وكيف يثق بجيل همه الوحيد ان يبحث عن لذته الحسية البهيمية وسط أنقاض البلاد وخرائبها ترقبا لاندثارها وضياعها المحتوم ؟ ان البلاد تحتضر وهو مشغول عنها باقتناص متعة عابرة ، متعة جنسية رخيصة .

ألا نصور لنا قصة « العملية الكبرى » هذا اليأس ؟ لست ادري كنه شعورك أنت ، وان كنت أنا أحسه احساسا عميقا .. فعبد الرؤوف ، طبيب الامتياز ، ينتمي الى طبقة متوسطة حتى يخيل اليك حين يتحدث انه الكاتب نفسه ، وانشراح المرضة تنبت اصولها في بيئة شعبية اصيلة ، ومع ذلك يمارسان الجنس بنهم وشبق شديدين في غرفة العمليات في المستشفى حيث جلسا يسهران على سيدة مريضة تحتضر بعد ان كان جسمها عرضة لتجارب وعمليات جراحية لا يبررها الا رغبة استاذ جراح « أدهم » في اثبات مقدرته وتفوقه وصدق حدسه .

هذه هي مصر : مريضة تحتاج عملية جراحية ،وقد اجريت لها فعلا ، ولكنها تكاد تودي بها الى الهلاك ، او هي أودت بها اليه.

وهذا هو شعبها بطبقاته المختلفة : الطبقة البرجوازية والبروليتارية يعيشان ويلهوان عن مصيرها البائس .. وماذا يشغلهما عن الالتفات اليها ؟ لا شيء الا تحايل الطبقة البرجوازية وسعيها الدائب لاغواء الطبقة البروليتارية ، هذه الطبقة الغبية التي سرعان ما تستجيب لادنى مداعبة او معابثة .

وهذه هي قيادتها : طبيب استاذ يمارس اجراء العمليات الجراحية بدافع الاعتداد بالنفس ، وبدافع الرغبة في اثبات المهارة والمقدرة ، وبدافع الثقة والاطمئنان الى سكوت الاشياع والانياع .. وعلى الرغم من ذلك كله لا يجرؤ أحد على معارضته او سؤاله عما يفعل فما بالك بمحاسبته ؟

وما دامت تلك هي الحالة العامة ، فطبيعي جدا ان ينتهي امر المريضة الى سوء كبير .. ولكن ،أين هو الخطأ ؟ ومن المسؤول ؟ ومن يكون المنقذ ؟.. (الحقيقة ان لا الابر ولا الخيط ولا اجهزة التكييف هي السبب ، والسيدة ما زالت لم تمت هذا صحيح ، ولكن الدم يتسرب من مكان الوصلة ، وبكميات ضخمة ، فليس هكذا توصل الشرايين بالشرايين ، فالطريقة خاطئة والفكرة من اولها خاطئة ، والخطأ ممتد وبادىء من اللحظة التي قرر فيها ان يحيل عملية الاستكشاف الى عملية استئصال كبرى ، بل الخطأ ، هكذا يدرك عبد الرؤوف الآن ، يمتد الى أبعد ، الى ذلك اليوم الذي أصبحت الجراحة عند استاذه تزاول من أجل الجراحة ، واصبحت العمليات واصحابها وهم غالبا من الفقراء الذين بلا حول ميدانا لاثبات القدرة والاستاذية. ص ١٥٣) .

وقد تكون هذه الرؤية التعليلية مصيبة او خاطئة ، وقد تمثل قطاعا ضيقا او عريضا من الناس ، ولكنها من غير شك رؤية برجوازية تكتفي بالاتهام وكشف العورات دون ان تكلف نفسها عناء البحث عن الحل البديل ... وربما كان أقرب الى الواقع وأشد تصويرا له قول الاستاذ ادهم بعد أن أنهى العملية الجراحية (واهو كده أوكده كان الورم حايموتها يبقى العلم اللي كسب، فمصر كسبت عملية عمرها ما اتعملت ، وعملية ناجحة قدامكم أهه ، والست لسه عايشه اهه ، ولو كانت الابر مضبوطة والخيط مضبوط كانت تعيش عشرين سنة كمان ، انما حظها كده .. ص ١٥٢).

انه الحظ اذن ، او الظروف هي التي فرضت طريها معينا ، وليس الايمان بحق الطبقات البائسة المحرومة . وانها الظروف ايضا هي التي جعلت الكاتب يسرف في اتهام الناس كلهم ، قيادة وجماهير، اجيالا ماضية واجيالا حاضرة ، كهولا وشبانا ، رجالا ونساء ... ولا بأس عليه الآن من أن يعمم الانهام ليدين المجتمع كاملا .

وقد فعل ذلك حقا في قصته « معجزة العصر » . وهي قصة قد نتفق معه من حيث اساس منطلقاته ، ولكننا نختلف معه في أشياء كثيرة ، لعل اهمها الناحية الفنية الخالصة .

نحن نوافق الكاتب على ان المجتمع هو الاساس والمنطلق وانه هو المكون لثقافة الفرد وتطلعاته وانماطه السلوكية ، ونحن نوافق الكاتب أيضا على ان الناس كثيرا ما تهتم بالظواهر السطحية كأن تحكم على انسان بمظهره دون الالتفات الى قدراته العقلية مثلا ، ونحن نوافق الكاتب كذلك على ان الانسان انما يتطور بتطور العلاقات الاجتماعية التي تحكم الصلة بين افراده ... كل ذلك قد نوافق الكاتب ونقره عليه ، ولكننا لا نستطيع ان نغفل ذلك الحشد الكثير الذي يفسد القصة افسادا شديدا ويحيلها انقاضا من الناحية الفنية . فأي داع

مثلا لهذا الكلام المسرف في طوله عن قضايا علمية بحتة ، وعن نظريات علمية ايضا ، تتخللها ارقام كثيرة عن الابعاد بين الكواكب او بين المجرات ؟ واي ضرورة فنية تفرض عليه الاحاطة بكل مظاهر الفساد في المجتمع وكأنه واعظ يرشد الناس الى الصراط المستقيم ؟ ما مبرر قوله مثلا (حتى انه اكتشف فيما اكتشف دواء لمعالجة الذمم الخربة لاصحاب البيوت . ص ١١٠)؟ .

أغلب الظن ان الكاتب لا يريد ان ينسى تخصصه العلمي ، ومن هنا يستغل فرصة غير مناسبة ليفرق قصته بطوفان من المعلومات العلمية التي تسيء الى فنية القصة بدل ان تخدمها وتعضدها .وهو امر يؤسف له اذ ان القصة بطبيعتها الخيالية الاسطورية التي تذكرنا اجواء « الف ليلة وليلة » تفسح مجالا خصبا لتحريك الرمز وتوجيهه الوجهة المبتغاة ، كما تساعد على صرف الذهن عن الملامح الخارجية السطحية ودفعه الى الغوص وراء المضمون الفعلي المقصود .

ولو أعرضنا عن هذه السقطة الفنية وحاولنا تحري مقاصد الكاتب لالفيناه مؤرقا باحساسه العنيف بفساد المجتمع وبأن الغربة والانانية هما داء العصر الاصيل ، اذ (الناس انغماسهم في مشاكلهم أقوى واكبر من ان يدعهم ولو للحظة يفيقون الى ما حولهم ويتأملونه بنظرة خالي البال . اننا لم نعد احرارا في رؤيانا، اصبحت انظارنا قصيرة موجهة الى ما تعرفه او الى ما تود معرفته، اي اننا لم نعد نرى ما ينعكس من داخلنا الا ما يعكس اهتماماتنا وتفكيرنا واحلامنا ، فقدنا تلك القدرة البكر على تلقي ما هو خارج النفس كما هو ، بروعته وتلقائيته وعمقه وبساطته والانفعال له او عليه ، وبناء آرائنا ومعتقداتنا من خلاله، اليوم نحن لا نرى خارجنا الا ما نحقق به ما نحس داخلنا ، لا نرى الا لكي نثبت او نبرهن به اننا على صواب ، ولكن في العادة دائما ما يحدث شيء ، حدث يعرض مصادفة ، شيء لا بد رغم ارادتنا يرغمنا على ان نلوي اعناقنا فنفاجأ اننا امام حدث خارق للعادة ، اننا امام شيء وان يكن صغيرا الا انه بالغ الدلالة ، وحينئذ تقلت من احدنا صرخة الادراك الاولى ومعها تجر الانتباهات الى انتباهات ليصبح ذلك الشيء بعد يوم وليلة محور اهتمامنا الاول ونكتشف وندرك كم نحن بحاجة اليه ،وكم كانت تفتقده حياتنا وكم هو لازم حيوي لها وننذفع حينئذ اندفاع من فقدوا العقول نهتم به ، او نراه رأي العين . هل اصبنم بخيبة أمل ؟.. ص ٩٠)

ربما نكون قد اصبنا بخيبة امل ، لا لهذا الرأي يدعيه الكاتب، ولكن لشيء آخر هو رؤية الكاتب التي ينظر من خلالها الى شؤون الحياة والاحياء .

وهي رؤية ليست ثورية قطعا ما دامت تبدأ من الرفض وتنتهي اليه ، وما دامت تكتفي بادانة الآخرين دون ان تطرح اي حل بديل، وما دامت تبكي الحاضر وتعاسته لتنسحب منه الى الماضي مضيفة نعاسة جديدة ، وهي تهمل بذلك المستقبل اهمالا يوشك ان يكون تاما .

ولست أنكر ان الكاتب يحاول صادقا في واحدة من قصصه « النقطة » ان يتمسك بالامل محاولا التأكيد ان الانسان ، أيا كانت المصاعب والمتاعب ، لا بد ان يأمل بشيء والا فقدت الحياة معناها ، ولكنني لا يمكن ان أقر الكاتب على امله في حدوث معجزة تنقذ وتدعم: تنقذ الجماهير الكادحة من الاستغلال والظلم ، وتدعم مسيرة ثورتها وتعمق صلابتها ، ذلك ان الامر أهون مما يظن وايسر ، فهو لا يستدعي معجزة ، وانما يحتاج رؤية جديدة للواقع ، رؤية ثورية اصيلة .. وهو لا يتطلب هواتف نهيب بالناس وتوهمهم بمستقبل معين ، وانما يحتاج وعيا سياسيا جماهيريا يقدس العمل ويجله .

ولو آمن الكاتب بذلك لما وجد نفسه مولعا بشيئين : اولهما الاسراف في تضخيم الاوهام وفي استعمال عبارات مثيرة للميلودراما، كتلك التي داعبت مثلا خيال فتحية حين دخل عليها الافندي الحجرة (انظر ص ٣٦) ، وثانيهما الاسراف في طريقة استرجاع الذكريات والخواطر مما يؤكد احتفاله بالماضي اكثر من المستقبل، بحيث تطل هذه الظاهرة في معظم قصص الكتاب .

ولا يدفع عن الكاتب تهمة الانحراف عن الرؤية الثورية اختيار بعض شخصيات قصصه من بيئات شعبية ، ذلك ان هذه الشخصيات غالبا ما تكون سلبية غير مؤثرة في تطور الاحداث ، او تكون منعزلة بحيث تختفي علاقاتها الاجتماعية ، وتبدو وكأنها افردت افرادا نموذجيا .. ولا يقلل هذا من صدق لهجة القصه حينا ، ومن توافر عنصر التشويق حينا آخر ، وانما مدار الامر هو تحديد الهوية الفكرية التي ارتضاها الكاتب لنفسه ، وهو هوية نستطيع ان نرجعها مطمئنين الآن الى الطبقة الوسطى بنظرتها البرجوازية التي قد تتعاطف مع آلام الكادحين الا انه تعاطف المحسن المفضل ، وليس تعاطف المؤمن الملتزم .

واي نظرة ثورية هذه التي تدين الناس جميعا ولا تجرؤ على الاشارة الى المسؤول صراحة وجهرا ؟ أليس مناقضا للثورية قول الكاتب ص ١١٥ (ومن كل صوب تنهال الاتهامات : السبب اساتذة الجامعة الذين لم يعيروه اهتماما ، السبب البيروقراطية ، والبيروقراطيون الجالسون فوق المكاتب يمنعون العبقريات عن الظهور، بل كلنا مسؤولون .. هكذا كتب صحفي كبير ، عن الجريمة ، كلنا اهملناه واحتقرنا شأنه وها نحن اليوم نقلب الارض بحثا عنه، كلنا مسؤولون) ؟ الا تعد هذه الصرخة « كلنا مسؤولون » منافية للواقع ومفرقة في الخطابية ومجافية للمنطق الاجتماعي الذي يرد اي انحراف الى عوامل موضوعية أهمها النظام السياسي السائد ؟

أليس تأكيدا واضحا على عدم الالتزام بايديولوجية ثورية مراوحة الكاتب بين اليأس والامل وعدم اتخاذه موقفا صريحا ؟.. وهكذا فبعد ان يصيح قائلا (ثم يصحو الانسان ذات يوم وهو يحس بالراحة الكبرى ، وقد انتهت الازمة ، ومات الامل تماما ، وحل اليأس الكامل . ص ٥١) يعود الى الامل مرة اخرى ، وان كان أملا شاحبا باهتا .

كذلك ألا يعد جديرا بالملاحظة والتأمل كون الجنس عنصرا طاغيا على تفكير الكاتب بحيث يشكل المحور الاساسي والعقدة البنائية في غالبية قصصه ؟ الا يعد جديرا بالملاحظة والتأمل اسراف الكاتب في استخدام ثقافته العلمية خاصة ، بمناسبة وبلا مناسبة ، وكأنه يبغي ان ينبه على فارئه خيلاء وكبرياء ؟.

وانها لسمات موحية قد تفيدنا في رد انتماء الكاتب الى الطبقة الوسطى بتطلعاتها البرجوازية المترفة وآمالها الفائمة . نفعل ذلك مطمئنين دون ان نخشى الاتهام بالتجني والمبالغة .. وما أصدق تلك العبارة التي صور بها الكاتب حالة المريضة المحتضرة التي رمز بها الى مصر وهي ترى الطبيب والممرضة يمارسان الجنس قربها ، وما اشدها انطباقا عليه نفسه ، اذ يقول ص ١٥٨ (ولكن اللحظة كانت كافية لتصنع ملامحها شيئا كالابتسامة ، ابتسامة مندهشة قليلا كابتسامة طفل تتفتح عيناه لاول مرة على الحياة فيدهشه ما يرى).

ويبقى السؤال حائرا يبحث عن اجابة شافية ، ويبقى المسؤول متواريا لا تشير اليه يد بانهام ، ذلك ان الناس جميعا متهمون في نظر الفاص ، وكأنه يفعل ذلك تبرئة لذمته وتخلية لذاته من اي مسؤولية .

ثم يتجدد التساؤل :

من المسؤول ؟ ومن يكون المنقذ ؟

لا جواب الا الصدى .

ولكن الكاتب ما زال يأمل ،وان كان لا يستطيع ان يتخيل ماهية هذا الامل ، او من سيحققه .. فهو ، كابناء الطبقة الوسطى جميعا الذين لم يلتزموا ايديولوجية ثورية واضحة ، قادر على الرفض، ومدرك لما يرفض ، ولكنه عاجز العجز كله عن ان يكون قادرا على ادراك ما يريد ومن يريد وكيف يريد .

سعدالدين دغمان